التنشئة الاجتماعية ودورها في بناء الهوية عند الأطفال

علي أسعد وطفة

مجلة الطفولة العربية

مجلة تربوية محكمة

تصدر عن الجمعية الكويتية للطفولة العربية

العدد 8، سبتمبر/ أيلول 2001

صص 52-104.

التنشئة الاجتماعية ودورها في بناء الهوية عند الأطفال

أ.د علي أسعد وطفة

كلية التربية - جامعة الكويت

تتشكل هوية الإنسان على منوال المعايير والقيم الاجتماعية لثقافة المجتمع الذي يعيش فيه. وإذا كان تكيف الكائنات الحية يجري وفق أنظمة غريزية مسجلة في فطرتها؛ فإن الإنسان هو الكائن الوحيد في مملكة الكائنات الحية الذي يتكيف ويتواصل وفقاً لمعايير ثقافية شعورية أو لا شعورية مسجلة في تاريخه الثقافي وسجله العصبي(١)، والإنسان في نسق هذا المفهوم هو الكائن الوحيد في مملكة الكائنات الحية الذي يغدو إنساناً بالثقافة بالتربية.

وفي عمق الجدل الشامل بين الإنسان والثقافة تبرز التنشئة الاجتماعية La socialisation حاضنا ثقافيا يتشكل فيه الإنسان وينمو على صورة المعايير الثقافية التربوية التي تحددها الثقافة عينها. فالتنشئة هي الأسلوب الذي يتبناه مجتمع ما في بناء الإنسان على صورة الثقافة القائمة. وفي أسلوب التنشئة الاجتماعية وأنماطها المختلفة تبرز واحدة من أهم القضايا الأساسية للوجود الإنساني والتي تتعلق ببناء جوهر الإنسان الداخلي الذي يتمثل في تحديد شخصية الإنسان وجوهره. فالشخصية تشكيل ثقافي تتحدد طبيعته بطبيعة الحاضن الثقافي الذي نشأ في رعايته. وهذا يعني أن طبيعة الشخصية الإنسانية مرهونة إلى حد كبير بطبيعة ومستوى تطور أسلوب التنشئة الاجتماعية التي تشكل القالب الثقافي الذي يهب الإنسان خصائص إنسانيته. ويترتب على ذلك أيضاً أن طبيعة ومستوى تطور الحاضن الثقافي مرهون إلى حد كبير بمستوى تطور الثقافة التي تشكل الإطار العام للتنشئة الاجتماعية.

وهذا كله يعني أن مرونة الحاضن الثقافي ومدى قدرته على التكيف وفقاً لمعطيات الطبيعة الإنسانية الفردية والتوافق مع متطلباتها تشكل الشرط الموضوعي لنشأة الشخصية الإنسانية وتطورها ومنطلق قدرتها على الحضور والتماسك والإبداع. فالمرونة التي تتسم بها أساليب التنشئة الاجتماعية هي الخاصة الجوهرية والأساسية لتحقيق النماء في شخص الإنسان وتطوره.

---

١ علي وطفة، علم الاجتماع التربوي، مطبعة الاتحاد، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٢. (ص٣٧).

١- فالتنشئة هي العملية التي يتم فيها ومن خلالها دمج ثقافة المجتمع في الفرد ودمج الفرد في ثقافة المجتمع وهي وفقاً لهذا المعنى العملية الجدلية التي تربط بين الفرد وبين ثقافة المجتمع هي العملية التي يتم فيها بناء الثقافة داخل الفرد.

٢- هي ازاحة الجانب البيولوجي في الإنسان لصالح الجانب الاجتماعي أو الانتقال بالإنسان من حالته البيولوجية إلى حالته الاجتماعية.

يقول دور كهايم في كتابه التربية والمجتمع: يوجد في كل منا كائنان لا يمكن الفصل بينهما إلا على نحو تجريدي، أحدهما نتاج لكل الحالات الذهنية الخاصة بنا وبحياتنا الشخصية وهو ما يطلق عليه الكائن الفردي: أما الكائن الآخر فهو جملة نظام من الأفكار والمشاعر والعادات التي لا تعبر عن شخصيتنا بل عن شخصية الجماعة والمجتمع الذي ننتمي إليه كالعقائد الدينية والممارسات الأخلاقية والتقاليد والمشاعر الجمعية من أي نوع وهي في مجموعها تشكل الكائن الاجتماعي الآخر، وبالتالي فإن بناء هذا الكائن الاجتماعي يمثل في نهاية المطاف هدف التربية وغايتها(٦).

وعلى خلاف دور كهايم يركز فرويد على أهمية التوحد أو التقمص في عملية التنشئة الاجتماعية ويعرف التقمص بأنه عملية نفسية يتمثل فيا الفرد مظهراً من مظاهر الآخر أو خاصة من خواصه أو صفة من صفاته(٧). وتتيح عملية التقمص للفرد أن يتمثل أدواراً اجتماعية جديدة وأن يستبطن مفاهيم وتصورات وقيم المجتمع الذي يعيش فيه، وذلك عبر سلسلة من العلاقات التي يقيمها الفرد مع الأشخاص الذين يحيطون به، والذين يشكلون موضوع تقمصه أو نماذج لسلوكه. وتبرز أولويات التنشئة الاجتماعية عند فرويد في نظريته حول مكونات الشخصية وفي جدل العلاقات القائمة بين هذه المكونات الذي يبرز أهمية العلاقة بين الجانب البيولوجي والجانب الاجتماعي: فالهو Le ca ينطوي على الحالة الفطرية الأولية عند الكائن بينما يشكل الأنا الأعلى Le sur-moi الجانب الاجتماعي الثقافي في شخص الفرد ويرمز إلى العادات والتقاليد الجمعية السائدة في المجتمع.

وبالتالي فإن التفاعل الذي يتم بين الأنا الأعلى والهو عبر تدخل الأنا يمثل الجانب الأساسي في عملية التنشئة الاجتماعية. وعن طريق تفاعل بين عضوية الكائن وثقافة المجتمع يستطيع الفرد أن يتكون اجتماعيا وأن يحظى بعضوية الجماعة.

ونلاحظ في هذا الجانب تقارب كبير بين نظرية فرويد ونظرية دور كهايم في العلاقة بين البيولوجي والاجتماعي، بين العقل الجمعي الذي يشكل شخصية الفرد عند دور كهايم وبين الأنا الأعلى الذي يمثل الجانب الاجتماعي في شخصية الفرد عند فرويد، ويكمن التباين الأساسي بين النظريتين في أهمية المصدر في عملية التنشئة. ففي الوقت الذي يركز فيه دور كهايم على الجانب الاجتماعي الخارجي في تكوين وإعداد الفرد لحياة الجماعة الذي يتمثل في "الضمير الجماعي" الذي يمارس اكراها على ضمائر الأفراد، فإن عملية التنشئة تتم في نظرية فرويد وفق أواليات داخلية

٦- إميل دور كهايم، التربية والمجتمع، ترجمة علي أسعد وطفة، دار سعد، دمشق ١٩٩٦ (نفس الغلاف).
٧- مارسيل بوستيف، العلاقة التربوية، ترجمة محمد بشير النحاس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨١ (ص ١٧٠)

ولا غرو اليوم أن يلجأ علماء النفس والتربية إلى أسلوب التنشئة الاجتماعية السائدة في بعض المجتمعات الإنسانية لتفسير بعض الأحداث التاريخية. ويمكن لنا أن في هذا السياق أن نسرد واقعة تاريخية هامة تبين لنا إلى أي حد تكمن أهمية التنشئة الاجتماعية في بناء الإنسان المتكامل نفسياً.

في نيسان من عام ١٩٤٥ أي في أثناء الحرب العالمية الثانية، هاجمت الأساطيل الأمريكية جزيرة أوكيناوا اليابانية وبدأت تقصف الجزيرة بأطنان من القنابل ونيران المدفعية والطيران لمدة ثلاثة أشهر دون وقف، استطاعات خلالها أن تذوب الصخور والكهوف والمغاور: التي كانت الملجأ الوحيد للجنود اليابانيين والسكان الأصليين للجزيرة، وفيما بعد دخلت احتلت القوات الأمريكية الجزيرة وألقت القبض على من بقي على قيد الحياة من الجنود اليابانيين والسكان الأصليين. وقد لاحظ علماء النفس فيما بعد إلى حد الدهشة أن الجنود اليابانيين الأسرى (وهم من الكوماندوس الذي تم اختياره وتدريبه بعناية فائقة على خوض المعارك) كانوا يعانون من اضطرابات وأمراض نفسية بالغة الخطورة وأن هذه الإضطرابات كانت متدنية جداً عند السكان الأصليين. ومن أجل تفسير هذه الظاهرة أجريت أبحاث نفسية وأتنولوجية تبين بمقتضاها للعلماء أن سبب انخفاض درجة الاضطرابات النفسية عند السكان الأصليين للجزيرة ناجم عن أسلوب التنشئة الاجتماعية لسكان الجزيرة الأصليين: أسلوب التنشئة في الجزيرة كما تبين يغدق على الطفل حبا بلا حدود ويمنح الطفل حرية واسعة جداً وخاصة أثناء الرضاعة وتسامحاً كبيراً فيما يتعلق باللعب وضبط الإخراج ويترك حتى يسير على قدميه دون إكراه. باختصار التنشئة الاجتماعية السائدة هي تنشئة تنتفي فيها كل أشكال الإكراه والعنف والتوتر بعيداً عن حياة الطفل. وباختصار أرجح العلماء سوية الصحة النفسية العالية جداً لسكان الجزيرة الأصليين وقدرتهم على مواجهة الرعب والخوف ولحظات الجحيم إلى أسلوب التنشئة الاجتماعية الذي منحهم طاقة هائلة في مواجهة الصعاب وتحديات الوجود بثبات جأش وقوة وذلك بدرجة أكبر من الجنود اليابانيين الذين أعدوا لويلات الحرب ولمواجهة الجحيم(٢).

فالسمات الشخصية كالثقة بالنفس واللامبالاة والاتكالية والقدرة على الانجاز والشعور بالنقص أو تأكيد الذات والفردية والميل للتعاون وغيرها من السمات الشخصية تعود إلى أسلوب ونمط التنشئة الاجتماعية السائدة في مجتمع ما.

تعريف التنشئة الاجتماعية

لا يمكن للمرء أن يقع على تعريف جامع مانع للتنشئة الاجتماعية ومن أجل بناء صورة واضحة لمفهوم التنشئة الاجتماعية يمكن القول بأن التنشئة الاجتماعية هي منظومة العمليات التي يعتمدها المجتمع في نقل ثقافته بما تنطوي عليه من مفاهيم وقيم وعادات وتقاليد إلى أفراده.

ويعد دور كهايم أول من استخدم مفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization بمعناه التربوي(٣)؛ وأول من عمل على صوغ الملامح العلمية لنظرية التنشئة الاجتماعية، يقول دور كهايم بصدد تعريفه لغاية التربية: إن الإنسان الذي تريد التربية أن تحققه فينا ليس هو الإنسان على غرار ما أودعته الطبيعة بل الإنسان على غرار ما يريده المجتمع(٤). فالتربية هي التأثير الذي تمارسه الأجيال الراشدة في الأجيال التي لم ترشد بعد وتكمن وظيفتها في إزاحة الجانب البيولوجي من نفسية الطفل لصالح نماذج من السلوك الاجتماعي المنظم(٥).

٢- Frank R. Donovan: Education stricte et education libérale, Robert, Laffont Paris, 1968. (P. 74).

٣- علي وطفه، علم الاجتماع التربوي، مطبعة الاتحاد، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٢ ص٣٦.

٤- غي أفانزيني، الجمود والتجديد في التربية المدرسية، ترجمة عبدالله عبدالدايم، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١ ص٣٣.

٥- ريناتا غورفا، مقدمة في علم الاجتماع التربوي، ترجمة نزار عيون السود، دار دمشق ١٩٨٤ ص ١٠٥.

التي تجعل الشخص يتمايز عما سواه ويشعر بتباينه ووحدته الذاتية(١٠) ومن أجل تحديد ظلال التمايز بين مفهومي الشخصية والهوية يمكن أن نسجل النقاط التالية:

١- يركز مفهوم الهوية على أهمية المشاعر الداخلية بدرجة أكبر من الشخصية.

٢- يرتكز مفهوم الهوية على مفهوم الانتماء ومفهوم الوحدة والتكامل النفسي لشخص.

٣- يركز مفهوم الشخصية على الجوانب الخارجية بدرجة أكبر من مفهوم الهوية ويتضح هذا من فكرة القناع والذي يعني المظهر الخارجي.

٤- يركز مفهوم الشخصية على الجوانب المادية بصورة أشمل من مفهوم الشخصية.

٥- يعد مفهوم الهوية مفهوماً فلسفيا بالدرجة الأولى حيث يوظف بشكل واسع في مجال الفلسفة ويشكل مبدأ الهوية واحداً من أقدم المبادئ الفلسفية وقوامه أ= أ أي أن الشي هو نفسه. وعلى خلاف ذلك يعد مفهوم الشخصية مفهوماً سيكولوجيا أو أدبياً شاع استخدامه في مجال الأدب وعلم النفس بالدرجة الأولى.

٦- مفهوم الهوية مفهوم شامل يوظف للدلالة على ظواهر مادية غير إنسانية بينما ينفرد مفهوم الشخصية بالدلالة على الظاهرة الإنسانية دون غيرها من الظواهر.

ومن أوجه التجانس بين المفهومين يمكن الإشارة إلى ما يلي:

١- كلاهما يؤكد عنصر الوحدة في الكائن الإنساني.

٢- كلاهما يشمل عنصر التنظيم بين عناصر الوجود الفردي.

٣- كلاهما يؤكد أهمية التغير فالفرد (هوية أو شخصية) حقيقة تتغير عبر بعدي الزمان والمكان.

٤- كلاهما يؤكد على أن الكيان الإنساني يشتمل على عناصر ونفسية مكونة.

٥- وفي هذه الحدود يمكن لنا الآن أن ننطلق لنركز على مفهوم الهوية حينا ومفهوم الشخصية أحياناً أخرى وذلك في إطار دراستنا للبعد التربوي ودوره في تكوين الهوية والشخصية الإنسانية، وهذا يعني أننا سنركز هنا على البعد الداخلي النفسي والفلسفي للشخصية الذي يتمثل في دلالة الهوية.

جدل الشخصية والثقافة:

تتحدد السمات الأساسية للشخصية في مجتمع ما بطابع الثقافة السائدة في المجتمع، وترتبط بنية الشخصية على حد تعبير بودون "Boudon ارتباط وثيقاً بالثقافة المحددة لمجتمع معين" وفي هذا الصدد يرى كاردينر Kardiner أن كل نظام اجتماعي ثقافي يتميز بشخصية مرجعية فالأنا هي ترسب ثقافي، وبالتالي فالشخصية الثقافية تتباين من ثقافة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر.

وفي هذا الخصوص يرى بارسونز "Parsons أن الأمريكيين يعطون أهمية للكمال أكثر من الألمان بينما يعطون أهمية أقل منهم على المحافظة"(١١). وتقوم افتراضات الشخصية الثقافية على مبدأ أن "القيم والعناصر الثقافية للنظام الثقافي تستبطن بأمانه من قبل الفرد وهي تشكل نوعا من البرمجة الناظمة لسلوكه"(١٢).

١٠- أليكس ميكشللي، الهوية، ترجمة علي وطفة، دار معد، دمشق، ١٩٩٣، ص١، ص١٣٩.

١١- ملك أبيض، الثقافة وقيم الشباب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٤، ص ٢٢٩.

١٢- ملك أبيض، الثقافة وقيم الشباب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٤، ص ٢٣٠.

نفسية ماثلة في جدول العلاقة بين الفردي والاجتماعي.

تعريف الهوية والشخصية:

يعد مفهوما الهوية والشخصية من المفاهيم الإشكالية التي تطرح نفسها منذ زمن بعيد على بساط البحث العلمي. وإذا كان كل مفهوم من هذين المفهومين يطرح إشكالية بمفرده فإن الإشكالية التي يطرحها التداخل بينهما ينهض بقوة العمالقة.

إنه لمن المشقة بمكان أن يفصل المرء فصلا قطعياً بين مفهومي الشخصية ومفهوم الهوية، حيث تطرح هذه المسألة نفسها إشكالية منهجية بالغة الصعوبة والتعقيد. ومن حيث المبدأ يمكن التركيز على وحدة المفهومين الشخصية والثقافة لأن أغلب الباحثين والمفكرين لا يفصلون بينهما بل يتجاهلون الحدود الفاصلة ويأخذون في استخدام المفهومين كمترادفين تماماً أو على نحو تضايفي. ولا بد لنا في هذا المقام من أن نرسم بعض الملامح الأولية للوحدة والإنفصال بين المفهومين. وقبل أن نخوض في هذه القضية يمكن أن نرسم بعض ملامح التعريفين.

يشتق مفهوم الشخصية Personnalté يشتق من الكلمة اليونانية Persona والتي تعني في الأصل قناعاً، وليس من السهل أبداً أن نقع على تعريف جامع مانع لهذا المفهوم، إذا يحصي جوردن ألبورت Gordon Allport عام ١٩٣٧ خمسين تعريفا للشخصية، وينطلق البورت من هذه المعطيات ليقدم تعريفاً متوازنا للشخصية قوامه أن "الشخصية هي تنظيم دينامي لوضعيات نفسية فيزيائية تحقق للفرد تكيفه مع الوسط الاجتماعي". وهذا يعني أن الشخصية ليست وجوداً مادياً فحسب بل هي كيان متناسق من التصورات الحرة والأحاسيس الروحية والمشاعر.

يورد أحمد زكي بدوي تعريفاً للشخصية قوامه أن "الشخصية نظام متكامل من الخصائص الجسمية والوجدانية والتروعية والإدراكية التي تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تمييزا بينا"(٨). وهذا التعريف كما هو واضح يجعل من الشخصية وحدة متمايزة يؤكد التطابق بين مفهوم الهوية والشخصية ويعرف جان ديبوا Jean Dubois الشخصية بأنها مجموعة العناصر التي تشكل السلوك ردود أفعال الأشخاص إزاء المواقف الحياتية"(٩).

وفيما يتعلق بالهوية يمكن لنا أن نستند إلى جهود المفكر الفرنسي إليكس ميكشللي الذي يعرف الهوية بأنها: منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصة الإحساس بالهوية والشعور بها. فالهوية هي وحدة من المشاعر الداخلية التي تتمثل في الشعور بالاستمرارية والتمايز والديمومة والجهد المركزي. وهي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة

٨- أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٨، ص ٣١١.
٩- Jean Dubois: Dictionnaire du francais contemporain, Larousse, paris, 1989.

النسب المؤية لنمو التعلم العام حتى سن الثامنة عشرة في تصنيف بلوم

الأعمار	النمو في كل مرحلة عمرية	التراكم في كل مرحلة
من الولادة حتى ٦ سنة	٣٣٪	٣٣٪
من ٦ سنوات حتى ١٣	٤٢٪	٧٥٪
من ١٣ سنة حتى ١٨	٢٥٪	١٠٠٪

ويؤكد غلين دومان أن ٨٩٪ من حجم الدماغ الطبيعي ينمو خلال السنوات الخمس الأولى(١٨). هذا ويؤكد كل من ميداني كلاين؛ وآنا فرويد، والفرد أدلر، وأريكسون، وفروم، ولا كان على الأهمية المطلقة لحياة الطفولة المبكرة وعلى أهمية المراحل الحرجة في النمو والتي تتمركز في مرحلة الطفولة المبكرة.

ولا بد لنا هنا الإشارة إلى أهمية ما يسمى بالمراحل الحرجة للتطور مثل: مرحلة المرآة عند لاكان، المرحلة الأودوبية عند فرويد، مرحلة الرضاعة عند ميداني كلاين، ومرحلة تشكل الهوية عند اريكسون، ومرحلة ارضاء الحاجات عند ماسلو، وهي المراحل التي تعطي أهمية خاصة في عملية التطور وهي مراحل تتمحور في مرحلة مادون الخامسة من عمر الأطفال(١٩). ولا بد لنا في هذا السياق من الإشارة إلى مصداقية الأقوال المأثورة التي تقول أن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، ومن شب على شيء شاب عليه.

ويكمن أسلوب التسلط في أصل العقد والأمراض النفسية مثل: عقدة النقص، عقدة الخصاء والخصاء الذني، عقدة أوديب، عقدة الإهمال، عقدة المنافسة الأخوية، عقدة الذنب، وعقدة فقدان الأمن. والإتجاه التسلطي في التربية يمكنه أن يفسر مختلف مظاهر الاضطرابات والأمراض النفسية.

أساليب التنشئة الاجتماعية ودورها في بناء الهوية:

يعنى بأسلوب التنشئة الاجتماعية الكيفية التي يتم من خلالها بناء الثقافة في الفرد وتشكيله على نحو اجتماعي هذا وبغض النظر عن المحتوى القيمي للثقافة التي تنقل إلى الأفراد يلعب أسلوب التنشئة الاجتماعية دوراً كبيراً في التأثير سلباً أو إيجاباً في بنية الشخصية ز وهذا يعني أنه يمكن لأسلوب التنشئة الاجتماعية الذي تعتمده بعض القبائل البدائية أفضل من حيث المبدأ لتحقيق نماء الشخصية وتطورها مع الأساليب التي تعتمدها الثقافات المتقدمة حضارياً. وتتمايز أساليب التنشئة الاجتماعية المعتمدة في درجة الشدة المستخدمة وفي مدى اعتمادها على الأساليب العلمية في بناء شخصية الفراد وتربيتهم.

وبصورة عامة يمكن القول إن أساليب التنشئة الاجتماعية التي تعتمد الإسراف في استخدام الشدة أو التساهل تؤدي إلى بناء شخصيات ضعيفة وغير متكاملة. وكلما اتجهت هذه الأساليب نحو اعتماد المنطق العلمي في التنشئة الاجتماعية كانت أكثر قدرة على بناء شخصيات سليمة متكاملة.

١٨- علي وطفة، علم الاجتماع التربوي، مرجع سابق، ص ٧٩.

١٩- جان كلود فيلو، اللاشعور بحث في أعماق النفس الإنسانية، ترجمة علي وطفة، دار سعد، دمشق ١٩٩٦.

وفي إطار هذه الصورة فإن الشخصية تعكس إلى حد كبير السمات الثقافية لمجتمع الإنتماء، ويبرز هذا في التباين السلوكي الذي يظهر بين شخصين ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين حيث يمكن تمييز رجل فرنسي عن رجل انكليزي من خلال بعض أنماط السلوك التي يقوم بها كل منهما. وهذا يعني أن الشخصية تنطوي على السمات العامة للثقافة السائدة في مجتمع ما أن أعضاء مجتمع ما، غالباً ما، يحملون نسقا مشتركاً من السمات الثقافية لمجتمعهم والتي تحدد نمط الشخصية الأساسية لهذه الثقافة (١٣).

يرى دوراند Durand إلى ذلك "أن نظام القيم والمواقف المشتركة بين أعضاء الجماعة يترجم إلى أشكال متعددة من السلوك الصريح والذي يرتبط بمواقف معينة"(١٤). ويترتب على ما سبق أن لكل ثقافة شخصية أساسية مرجعية وهي الهوية الأساسية في هذا المجتمع؛ وهي تعكس صورة القيم السائدة أو الصيغة النفسية للحياة الاجتماعية والثقافية القائمة كما يمكن أن نحظ وجود شخصيات مرجعية ثقافية لكل ثقافة فرعية أو مجتمع فرعي في إطار المجتمع الكبير.

والتنشئة الاجتماعية هي العملية التي يتم من خلالها تشكيل النظام القيمي الثقافي في الفرد وبناء السجل العصبي لسلوكه الحيوي. ومن هذا المنطلق يمكن القول أن طابع ومحتوى وشكل التنشئة الاجتماعية يؤثر في بناء الشخصية ويحدد السمات الاساسية للهوية الفردية. ولا بد لنا من المرور على بعض مؤسسات التنشئة الاجتماعية التي تلعب دوراً كبيراً في تشكيل القيم السلوكية أو الأفكار التي تمثل السجل العصبي للسلوك الإنساني.

دور التنشئة الأسرية وأهميتها في بناء الهوية:

الأسرة هي البوتقة التي تتشكل فيها شخصية الفرد وهويته. وقد اجمعت تجارب العلماء وتأملاتهم على أهمية الأسرة في رسم خصائص شخصيات الأطفال ولا سيما في السنوات الأولى من حياتهم. وأجمعت هذه التجارب أيضا وهذه التأملات على أن الأسرة هي أمضى سلاح يعتمده المجتمع في عملية التنشئة الاجتماعية، وفي بناء شخصية الإنسان القادر على الفعل والمبادرة والإبداع. هذا ويتوقف أثر الأسرة في عملية التنشئة الاجتماعية على عوامل في تركيبها وعلى أجوائها العاطفية ومستواها الاجتماعي والاقتصادي.

عندما يبلغ الطفل الثالثة من عمره يكون قد حقق كما يبين زازو(١٥) يكون قد أنجز الجانب الأساسي من تراثه الوراثي. وتعود أهمية الأسرة في بناء شخصية الطفل إلى العوامل التالية:

١- أهمية السنوات الأولى من حياة الفرد كما يؤكد العلماء والباحثون.

٢- النمو الكبير للطفل خلال سنوات حياته الأولى: تشير الدراسات الجارية أن دماغ الطفل يصل إلى ٩٠٪ من وزنه في الخامسة من العمر وإلى ٩٥٪ من وزنه في العاشرة من العمر(١٦).

٣- قدرات الطفل على التعلم في هذه المرحلة، حيث يقدر بلوم Benjamin. S. Bloom أن الطفل يكتسب ٣٣٪ من معارفه في السادسة من العمر وترتفع هذه النسبة إلى ٧٥٪ في الثالثة عشرة من العمر وإلى ١٠٠٪ في الثامنة من العمر وذلك كما هو في الجدول التالي(١٧):

١٣- Gilbert.Durand: les grands textes de la sociologie moderne, Bordas, Paris, 1969. p.91.

١٤- Gilbert.Durand: les grands textesMeme source. P.91.

١٥- فريق من الباحثين، علم النفس وميادينه، ترجمة وجيه أسعد، الدار المتحدة، مؤسسة الرسالة، بيروت. ١٩٩٣. ص(٧٨).

١٦- خالد الطحان، دراسة بعض العوامل التي تسهم في التحصيل الدراسي ودور الأسرة فيها، المعلم العربي، السنة ٣١، عدد ٧ تموز، ١٩٧٨ (ص٣).

١٧- عبد الرحيم صالح عبد الله، الأسرة وتفاعلها مع المدرسة في تربية الأطفال، كلية الآداب جامعة الكويت، ١٩٧٦ (ص٩).

العملية الرصينة ويختلف تصنيف أهمية هذه الحاجات بين نظرية وأخرى إلا أن جميع النظريات مثل نظرية ماسلو ونظرية ماكدوغال ونظرية اريكسون تركز على أهمية هذه الحاجات بوصفها المنطلق الأساسي لتشكل الهوية ولتشكل الوحدة الشخصية للفرد وبالتالي من أجل الوصول إلى ما يسمى بالصحة النفسية للفرد.. ويمكن لنا في هذا السياق أن نوصف بعض هذه الحاجات.

أولا: الحاجة إلى الحب:

الحب حاجة إنسانية أصيلة تضرب جذورها في العمق الإنساني: وهي من أهم الحاجات الإنفعالية عند الأطفال. وتأمين الحب شرط ضروري لنمو الأطفال وازدهارهم وقديما قيل بالحب يحيا الإنسان. فالحب عامل ازدهار وتكون وصيرورة إنسانية، وهو قيمة إنسانية تتنافى مع كل صيغ القسوة والإكراه، ومن هنا فإن التربية الديمقراطية تناشد الحب الشامل وتنميه في قلوب الأطفال وتحيطهم به بلا حدود: لأنها تشكل الركن الأساسي وحجر الزاوية في أية ديمقراطية خلاقة.

لقد بينت التجارب أن أطفال الملاجيء غالباً ما يتجرعون كأس الموت عندما يحرمون من حب الأم وحنانها ورعايتها. في عام ١٩١٥ لاحظ طبيب في مشفى جونز هوبكنز أن نسبة ٩٠٪ من أطفال الملاجئ الذين أدخلوا إلى مياتم ودور الحضانة في بالتيمور بولاية ماريلاند (الأمريكية) ماتوا خلال العام الأول من إدخالهم رغم أنهم حظو بعناية ورعاية (٢٠). وفي عام ١٩٨٥ توصل باحث في التحليل النفسي بأن انعدام عناية الأم وإثارتها لطفلها وإظهار حبها له يؤدي إلى تخلف حسي في عاطفته وإلى معدل وفيات عالية. لقد تبين له خلال دراسة أجراها حول عينة من أطفال الملاجئ أن ٢٤ طفلا من أصل ٩١ طفلا قد ماتوا رغم الطعام الجيد والعناية الطبية الفائقة(٢١).

وفي هذا المسار يمكن الإشارة إلى تجربة فريدرك الثاني حاكم صقلية في القرن الثالث عشر - وكان هذا الحاكم شاعراً موهوباً وفناناً وعالماً طبيعياً - التي حاول من خلالها أن يعرف ما اللغة التي يتكلمها الأطفال عندما يكبرون إذا لم يسمعوا كلام أحد هل هي اللغة العبرية أم اللغة العربية أم اللاتينية؟ ومن أجل هذه الغاية دفع بعدد من الأطفال حديثي الولادة إلى مرضعات ومربيات يقمن بالرعاية والرضاعة وذلك من دون أن يصدر عن المربيات أي صوت، أكان مناغاة أم كلاماً، لقد ذهبت تجربة فريدريك سدى لأن جميع الأطفال تجرعوا كأس الموت لأنهم لم يستطيعوا أن يعيشوا من غير حب، يتمثل في المناغات والمداعاة والابتسامات والأصوات(٢٢). ولقد قام بهذه التجربة من قبل بسماتيك فرعون مصر وانتهت إلى النتيجة نفسها. وحدث أيضا أن أجريت مثل هذه التجربة في عهد الملك جيمس الرابع في اسكتلندا عام ١٥٠٠ وقد لاحظ المجربون أن الطفل لا يتكلم أية لغة وأن أكثر الأطفال كانوا يتجرعون كأس الموت ويضاف إلى ذلك أن هؤلاء الأطفال (من بقي منهم) كان من الصعب بمكان أن يتعلموا اللغة(٢٣). ويشير ذلك كله إلى أهمية الحب كحاجة أساسية للوجود الإنساني برمته ويعد الحب من أهم الحاجات الإنفعالية عند الأطفال على الإطلاق، والطفل الذي يعاني من الحرمان العاطفي سيعاني في المستقبل من اضطرابات نفسية ومن قابلية واسعة للانحراف، وللحب ثلاثة ضروب أساسية منها:

١- أن ينهل الطفل من حب الآخرين.

٢- أن يغدق حبه على الآخرين وعلى نفسه أيضا.

٢٠- بيتر فارب، بنو الإنسان ترجمة زهير الكرمي، عالم المعرفة، عدد ٦٧، يوليو تموز ١٩٨٣ (ص١٢)

٢١- المرجع السابق ص، ١٣.

٢٢- المرجع السابق ص١٢.

٢٣- محمود السيد، في طرائق تدريس اللغة العربية، مطبعة الاتحاد، دمشق، ١٩٨١، ص١٠٧.

ويشار إلى الاتجاه العلمي في التنشئة الاجتماعية بوصفه نمطا من التنشئة الاجتماعية يقوم على أسس عملية تهدف إلى بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة وينطلق من عقلنة موضوعية لمختلف الظروف والشروط الموضوعية المؤثرة في الشخصية. وتعتمد التنشئة الاجتماعية العلمية على معطيات أهم النظريات العلمية في التربية ويمكن الإشارة إلى النماذج التالية للنظريات العالمية المتنامية في هذا الميدان ومنها:

١- كيف تنمو قدرات التفكير عند الطفل (جان بياجيه J. Piaget، نموذجا).

٢- كيف تنمو القدرات الانفعالية (سيغموند فرويد S. Freud، نموذجا).

٣- كيف تنمو القدرات الاجتماعية (إميل دور كهايم E. Durkheim نموذجا).

٤- تحديد حاجات نمو الشخصية (إبراهام ماوسلو A. Maslow نموذجا).

ويمكن الإشارة أيضاً إلى معطيات علم نفس الطفولة والمراهقة وعلم النفس التربوي كمنطلقات أساسية لأساليب التنشئة الاجتماعية العلمية.

وباختصار يمكن القول أن أساليب التنشئة الاجتماعية التسلطية الاعتباطية تؤدي بصورة عامة إلى هدم الشخصية الإنسانية بينما وعلى خلاف ذلك تعمل التنشئة الاجتماعية المعتدلة والتي تنطلق من معطيات التجربة الإنسانية العلمية في التربية على بنا الشخصيات الإنسانية المتكاملة.

منطلقات بناء الهوية المتكاملة وأسسها:

تتشكل الهوية المتكاملة وفقاً لمنطلقات وأسس نفسية واجتماعية متضافرة. وهناك بالتالي جملة من الشروط الموضوعية والذاتية التي يجب أن تتوازن من أجل بناء الشخصية وتحقيق نمائها. وتتمثل هذه الشروط في منظومة من الحاجات المتكاملة التي تشكل الإطار الموضوعي للعمليات التربوية التي تسعى إلى عملية بناء الهوية الشخصية المتكاملة. وهناك تصنيفات عديدة لمثل هذه الحاجات مثل تصنيف ابراهام أوسلو واريكسون. ومن أهم الحاجات الأساسية والشروط الموضوعية لبناء الشخصية يشار إلى العناصر التالية:

١- الحاجات المادية الحاجة إلى الطعام والشراب.

٢- الحاجة إلى الأمن.

٣- الحاجة إلى الحب.

٤- الحاجة إلى الانتماء.

٥- الحاجة إلى الحرية.

٦- الحاجة إلى الاستقلال.

٧- الحاجة إلى اثبات الذات.

هذه الحاجات تشكل في الوقت نفسه مشاعر الإحساس بالهوية عند إريكسون وتشكل في الوقت نفسه مبادئ التربية الحديثة ومنطلقاتها. وبالتالي فإن تامين هذه الحاجات يشكل منطلق التربية

خيالية مشحونة بالقوة والقدرة والطاقة. هذا ويمتلك الطفل نزعة حيوية إلى تحقيق استقلاله وبناء تجربته الذاتية في الوجود.

والتربية الاستقلالية تتنافى مع التربية الإتكالية التي لا تتيح للطفل الإعتماد على نفسه في حل مشكلاته وفي قضاء حاجاته وذلك على الرغم من تمتعه بالقدرات التي تعينه على القيام بها. وبالتالي فإن الشعور بالاستقلال هو الوجه الأخر للشعور بالانتماء وينمو هذا الشعور في جدل العلاقة بين الأنا والهو والأنا الأعلى والواقع عند فرويد وذلك عن طريق توحدات الطفل المتتابعة مع ذويه. وتعد الحاجة إلى الاستقلال وقوامها الاعتماد على الإمكانيات الذاتية وعلى الجهد المركزي واحداً من المنطلقات الأساسية للوجود الإنساني.

سادساً: الحاجة إلى التقدير الاجتماعي:

تعد الحاجة إلى التقدير الاجتماعي واحدة من الحاجات الدينامية للوجود. وتنطوي هذه الحاجة على جانبين أساسيين: يتمثل الأول في أن يحظى المرء على تقدير الآخرين ولا سيما في أحضان الجماعات المرجعية كالأسرة والمدرسة وجماعات الرفاق، ويتمثل الجانب الآخر في احترام الذات وتقديرها. وغني عن البيان أن احترام الذات ينبثق عن احترام الآخرين وأن صورة الذات مرهونة وإلى حد كبير بالانطباعات التي يسجلها الآخرون عن الفرد. ومن هذا المنطلق يجب الابتعاد عن كل ما من شأنه أن تبخيس شخصية الطفل والحط من شأنه.

قيمة الإنسان وإحساسه بوجوده وكينونته مرهون إلى حد كبير بالقيمة الاجتماعية التي يجسدها في إطار حياته الاجتماعية، فالإنسان يتعطش إلى احترام الآخرين وحبهم وأن يكون ذلك قائماً على أساس الأهمية والقيمة التي يمتلكها في المجتمع. ويحافظ ارضاء هذه الحاجة على توازن الإنسان وعلى صحته النفسية.

سابعاً: الحاجة إلى إثبات الذات والتجربة الذاتية:

الإنسان يريد أن يعتمد على خبرته الذاتية وعلى مكانته الخاصة ليثبت وجوده، وتعني هذه الحاجة تجسيداً لحالة الشعور بالاستقلال حيث يترتب على الطفل في هذا المستوى أن يحقق ذاته وأن يمتحنها في ميادين الحياة وذلك في سياق التجارب المختلفة. وتشكل تلبية هذه الحاجة التي لا تنفصل عن الحاجات الأخرى منطلقا من منطلقات الوجود والإحساس بالكينونة الذاتية للفرد.

فالتربية الحديثة على حد تعبير عبدالله عبد الدايم: "تدعو إلى تكوين الإنسان وليس إلى تكوين علامة يحمل هامة ضخمة من المعارف فوق جسم هزيل، وعاطفة ضامرة، وإحساس متلبد، وخلق مضطرب، وقدرات نفسية مدحورة(٢٧).

"فالمعلومات ليست هي التي تخلق الرجال وأنه لا يكفي للمرء أن يتعلم لغات عديدة وأن يعرف حساب اللامتناهيات كما يستحق الثقة ويكون مصدراً لسعادة أولئك الذين يحيا معهم ويكون نافعاً للمجتمع قادراً على العطاء له" (٢٨).

التنشئة الاجتماعية وأزمة الهوية في مجتمعنا العربي:

يعيش الطفل العربي في عالم من العنف المفروض داخل الأسرة والذي يجسد إلى حد كبير اعتباط

٢٧- عبد الله عبد الكريم، التربية عبر التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨، ص٥٠٥.
٢٨- المرجع السابق ص٥٠٥.

ثانيا: الحاجة إلى الأمن:

يعطي إبراهام ماوسلو الحاجة للأمن أهمية وأولوية خاصة فهي تلي الحاجات البيولوجية مباشرة(٢٤). وتتمثل الحاجة للأمن في توفير الشروط الأساسية للوجود والاستمرار. والحاجة للأمن هي استمرار للوضعية الجنينية للطفل أثناء مرحلة الرحم حيث يريد أن يكون بعيداً عن أشكال الخطر والخوف والتهديد والألم والمخاطر المختلفة جميعها.

ومن التجارب التي أجريت في هذا المجال تجارب الأمهات الصناعية حيث قام العلماء بتصميم نموذجين لأمهات صناعية ووضعوا صغار القردة معها منذ الولادة: يتكون النموذج الأول من أم صنوعة من أسلاك معدنية عارية مزودة بثدي صناعي تتغذى منها صغار القردة. وإلى جانب الأم الصناعية المغذاية التي تعطي الحليب، صنع نموذج آخر لأم صناعية أخرى مغطاة بجلد أملس ناعم، وقد لوحظ أن صغار القردة عندما تتعرض للخوف والخطر تسرع إلى الأم الصناعية ذات الملمس الناعم لأن هذا النموذج يوفر للصغار دفء الأم ونعومتها: وفي ذلك إشارة عميقة لأهمية الإحساس بالأمن عند صغار الحيوانات وهو الأمن الذي يمكن حنان الأم أمن يوفره(٢٥).

ثالثا: الحاجة إلى الإنتماء:

تمثل الحاجة إلى الانتماء هي إحدى الحاجات الأساسية للنفس الإنسانية وتجسد ركناً أساسياً من أركان الإحساس بالهوية. فالإنسان كائن لا يستطيع الاستمرار في الوجود إلا في إطار جماعة وأسرة ومجتمع، ومن غير ذلك فإن الإنسان يتعرض للفناء، فالانتماء إلى الأسرة وإلى جماعة الأقران وإلى مجتمع هي شروط أولية وأساسية للوجود الإنساني وهو شرط من شروط امتلاك الهوية عند أريكسون وغيره.

رابعا: الحاجة إلى الحرية:

يعد مبدأ الحرية المبتدأ والخبر في التربية الديمقراطية، ويأخذ هذا المبدأ صيغاً متنوعة أبرزها الحرية النفسية للطفل فالحرية الجسدية ومن ثم الحرية العقلية. ونعني بالحرية النفسية أن لا يكره الطفل على تبني مواقف انفعالية مثل مشاعر الحقد والكراهية والنفور وأن يترك للطفل حرية التكون السيكولوجي وفقاً لمعايير موضوعية قوامها التسامح والتضحية والعطاء. ويقصد بالحرية العقلية أن لا يشحن ذهن الطفل فيما لا يرغب فيه وأن يفكر فيما ليس من شأنه وأن يكره على تبني معتقدات وقيم خارجة على إرادته أو اهتماماته الطفولية. أما الحرية الجسدية فتتمثل في أن يترك للطفل وخاصة في مراحل حياته الأولى حرية اللعب والحركة والإنطلاق دون قيود أو حدود تعيق عمليه نموه وازدهاره. والحرية هي التي تتيح للفرد أن ينمو ويزدهر نفسياً واجتماعياً وعقلياً بصورة متوازنة. هذا وتعد الحرية ركنا أساسيا من أركان الوجود والكينونة الذاتية للفرد(٢٦).

خامسا: الحاجة إلى الاستقلال:

تنطلق التربية الديمقراطية من مبدأ التربية الاستقلالية. والتربية الاستقلالية هي التربية التي تهتم بتعويد الطفل الاعتماد على نفسه في حل مشكلاته وفي قضاء حاجاته وذلك بالقدر الذي تسمح له قدراته القيام به. وتشير أوجه النشاط النفسية للطفل إلى ميله الشديد إلى بناء صور

٢٤- رجاء محمود أبو علام، علم النفس التربوي، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٦، ص١٩٧.
٢٥- بيتر فارب... سير الإنسان مرجع سابق، ص٤٢٨.
٢٦- إليكس ميكشللي، الهوية، ترجمة على وطفه، الوسيم، دمشق، ١٩٩٣.

السلطة الأبوية(٢٩). وهو في هذا السياق يعيش بين إكراهات الحب الأمومي وبين إكراهات القسر الأبوي، فحب الأم العربية لأبنائها بكل ما يتميز به من حرارة عاطفية يغلب عليه الطابع التملكي. يقول مصطفى حجازي في هذا الصدد: تفرض الأم هيمنتها العاطفية على أطفالها. وتشمل في نفوسهم كل رغبات الاستقلال وتحيطهم بعالم من الخرافات والغيبيات والمخاوف، فينشأ الطفل انفعالياً خرافياً عاجزاً عن التصدي للواقع من خلال الحس النقدي والتفكير العقلاني(٣٠). وهذا يعني أن الطفل يعيش بين إكراهين بين حب الأم الذي يسحق شخصيته وبين تسلط الأب الذي يمحق وجوده.

إن نظرة متأنية لواقع التربية العربية تؤكد أن التربية مغرقة في تقليديتها وذلك على مستوى المدرسة وعلى مستوى الأسرة وفيما يلي نصف ملامح هذه التربية:

١- أسلوب التنشئة الاجتماعية أسلوب تقليدي يعتمد على التسلط والإكراه.

٢- يسود أسلوب الضرب والعقاب الجسدي في المدرسة والأسرة.

٣- يسود أسلوب التحقير والإذلال والإزدراء يسود في الأسرة والمدرسة.

٤- تتداخل في أساليب التنشئة العربية أساليب الشدة والتذبذب والمحاباة والترك والحماية الزائدة بنسب مختلفة.

٥- تعتمد التربية العربية على المبادئ التقليدية ومنها:

٦- الطفل ينطوي على نزعة شريرة - تقديم التعليم على التربية - الطفل راشد صغير - التربية إعداد للحياة وليست هي الحياة - التربية ترويض وليست تحرير.

وهذه التربية تؤدي إلى بناء الإنسان الذي تتملكه مشاعر الضعف والنقص والقصور والدونية والاحساس بالذنب. تبين الدراسات الجارية في ميدان التنشئة الاجتماعية أن الأساليب التسلطية والتقليدية في التربية تؤدي إلى هدم البنية النفسية والاجتماعية والعقلية للشخصية عن الأطفال. وعلى خلاف ذلك تبين هذه الدراسات أن الأطفال الذين يعيشون في أوساط أسرية تعتمد التنشئة الاجتماعية الديمقراطية يتميزون بالسمات التالية:

١- أكثر ذكاء وقدرة على التحصيل.

٢- أكثر قدرة على التكيف الاجتماعي.

٣- أكثر قدرة على الانجاز.

٤- أكثر قدرة على الانهماك في نشاط عقلي تحت ظروف صعبة.

٥- أكثر اعتماداً على النفس وميلاً إلى الاستقلال.

٦- أكثر اتصافاً بالود وأقل عدوانية.

٧- أكثر تلقائية وأصالة وابتكار.

٢٩- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الانسان المقهور، معهد الإنماء العربي، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٩٨٩.

٣٠- المرجع السابق ص٨٢.

وعلى خلاف ذلك فإن الأطفال الذين يعانون من عقد النقص والقصور والدونية هم هؤلاء الأطفال الذين خضعوا لتنشئة اجتماعية تقليدية متصلبة في مراحل طفولتهم الصغرى.

وتأسيساً على ما سبق يترتب على التربية العربية المعاصرة أن تأخذ بمعايير التنشئة الاجتماعية التي تنطلق من أسس علمية وذلك من أجل بناء الإنسان القادر المبدع في عصر التحولات والثورات العلمية المتلاحقة. وأن رهان التربية الحرة هو الأساس الذي يجب على التربية العربية أن تعتمده في مواجهة التحديات المصيرية التي تفرزها العولمة والحداثة.